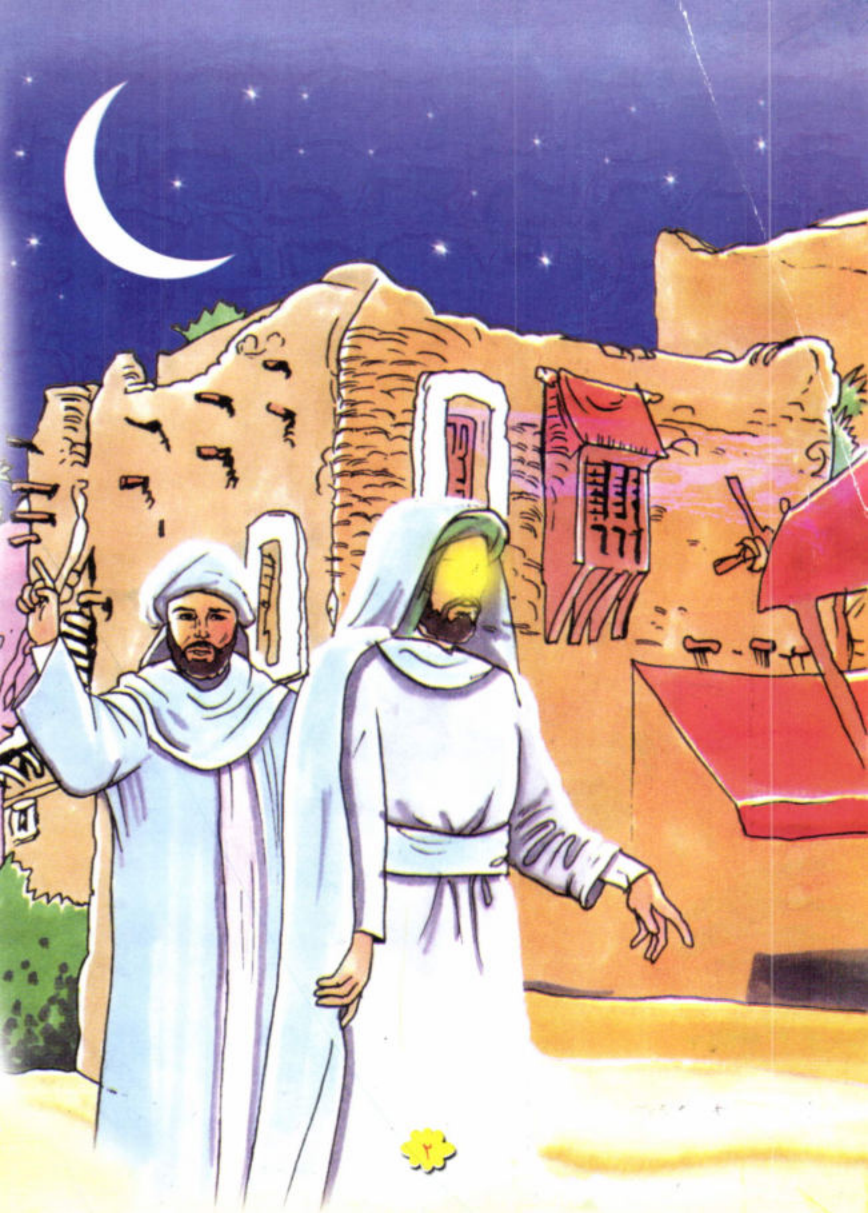
سلسلة الصحابة الأخيار

كميل بن زياد





مضى رُبعٌ منَ اللّيلِ، والنّاسُ كُلُّهُم في غَفْوَةٍ وسُباتٍ. وَقعُ خُطواتٍ وئيدَةٍ دغْدَغَتْ سُكونَ اللّيلِ. إنَّهُما شَخصانِ يَسيرانِ في الطَّريقِ في أَحَدِ شَوارعِ الكوفَةِ، وقد خَرَجا مُنذُ لَحظاتٍ منْ مَسجِدِها الّذي ما انطَفأَ سِراجُهُ بَعدُ.

كانَ الرَّجُلُ ذو الوَجهِ المُضيءِ هُوَ الإمامَ عليّاً بنَ أبي طالبٍ ﵇، أمّا صاحِبُهُ الّذي رافَقَهُ في المَسيرِ واهتدى بِنورِ وَجهِهِ، فَهُوَ الكُمَيلُ بنَ زِيادٍ بنِ نُهَيكٍ النّخعيُّ الكوفيُّ، الّذي كانَ من أوائِلِ الثّائِرينَ على عُثمانَ وأفعالِتهِ المُخالِفَةِ لِتعاليمِ النُّبُوَّةِ وَشَعائِرِ الإسلامِ، بَعدَ أنِ امتَلأَ قَلبُهُ بالهُدى، فَأَعَزَّهُ اللّهُ سُبحانَهُ وأَكْرَمَهُ بِأَنْ جَعَلَهُ من خِيارِ شيعَةِ وصيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وتلامِذَتِهِ ومُحبّيهِ.

ما أبهى هذِهِ اللّيلَةَ! كانَتْ نَفسُ كُميلٍ تُحدِّثُهُ، وهُوَ يَعلَمُ ما فَضْلُ صُحبَتِهِ للإمامِ ﵇ الّذي كانَ لايَدَعُ فُرصَةً لِيَزرَعَ في قَلبِهِ مِشكاةَ ضِياءٍ إلاّ واغْتَنَمَها!



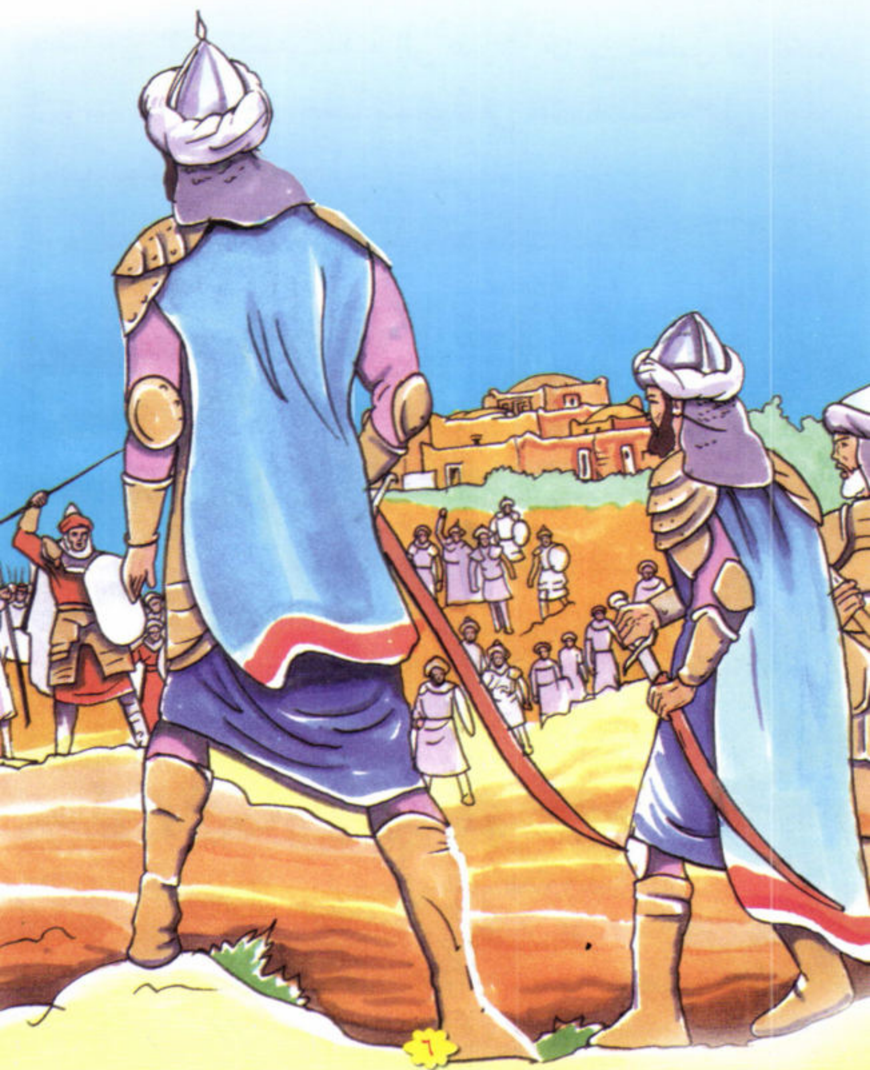
وهـا هُـوَ الآنَ يُصـغي مَعَـهُ إلى صَوتٍ حَزينٍ يَنطَلِـقُ من أَحَـدِ البُيوتِ، لِعابِدٍ ما زالَ يَقِظـاً يَتَهَجَّـدُ في ظُلمَـةِ ذلكَ اللّيلِ، ويتلو آياتِ الذِّكرِ الحَكيم بِتواضُعٍ وخُشوع.

بسمِ اللّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم﴿ أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللّيلِ ساجِـداً وقائِماً يَحذَرُ الآخِرَةَ وَيَرجو رَحمَةَ رَبِّهِ. قُلْ هَلْ يَستوي الّذينَ يَعلَمونَ والَّذينَ لا يَعلَمونَ إنَّما يَتَذَكَّرُ أولو الألبابِ.﴾.

لَم يَقُلْ كُمَيلٌ شَيئاً، وإن أسَرَّ في ذاتِهِ إعجاباً بِما سَمِعَهُ منَ الرَّجُلِ صاحِبِ الصَّوتِ.

أدرَكَ الإمـامُ عليٌّ عليه السلام ما يجولُ في أعمتاقِ نَفسِ كُمَيتلِ، فالتَفَتَ إليهِ وَقالَ:" يا كُمَيلُ! لا تُعجِبُكَ طَنطَنَةُ الرَّجُلِ! إنَّهُ مِنْ أهلِ النّارِ! ! وَسَأُنَبِّئُكَ فيما بَعدُ !".

عَقَدَتِ الدَّهشَةُ لِسانَ كُمَيلٍ مِمّا يَسمَعُهُ منَ الإمامِ عليه السلام! إنَّهُ يَعلَمُ أنَّهُ عليه السلام لايَقولُ إلاّ الحَقَّ والصِّدقَ، ولكنَّهُ أمرٌ غَريبٌ فِعلاً أن يَشهَدَ الإمامَ عليه السلام لِرَجُلٍ عابِدٍ هذِهِ العِبادَةَ بالنّـارِ!



وانتَظَرَ كُمَيلٌ الأيّامَ الّتي وَعَدَهُ الإمامُ عليٌّ عليه السلام بأن يُنَبِّئَهُ فيها بما يَحُلُّ لَهُ هذا اللُّغزَ.

لَقَدْ سَمِعَ كُمَيلٌ من قَبلُ عنْ لِسانِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قولَهُ مُخاطِباً المُسلِمينَ:" إنَّ أقواماً يَتَعَمَّقونَ في الدّينِ يَمرُقونَ كَما يَمرُقُ السَّهمُ منَ الرَّميَةِ.".

فَهَلْ تُراهُ يَعني بِهِم هؤلاءِ القَومِ وَأمثالِهِم؟

وَراحَ كُمَيلٌ يَتَذَكَّرُ مَزيداً منَ الأحاديثِ الَّتي رُوِيَتْ لَهُ عنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم الّذي لَم يُحالِفْهُ الحَظُّ في أن يَراهُ أو يَعرِفُهُ، إذْ إنَّهُ وُلِدَ بَعدَ وفاتِهِ ، ولكنَّهُ عَرَفَهُ كما لَم يَعرِفْهُ أَحَدٌ، بَعدَ أن أتاحَ لَهُ الزَّمانُ أَنْ يَعرِفَ وَصِيَّهُ وَيكونَ من شيعَتِهِ وَمُواليهِ.

لَقَدْ قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم في بَعضٍ منَ القُرّاءِ:" يَقرؤونَ القُرآنَ لا يُجاوِزُ حَناجِرَهُم.".

فَهَلْ يَكونُ هذا الرَّجُلُ من بينِ المَقصودينَ بِذلكَ القَولِ النَّبويِّ الّذي لا يَنطِقُ عنِ الهَوى.

حَسناً. إنَّ الأيّامَ لَم تُمهِلْ حَيرَةَ كُمَيلٍ كثيراً!



وَها هُمُ الخَوارِجُ أصحابُ الجِباهِ السَّوداءِ من كَثْرَةِ السُّجودِ، يَخرُجونَ على إمامِهِم، ويَخذُلونَهُ، ثُمَّ يُحارِبونَهُ، فيُخاطِبُهُم مالِكٌ الأشتَرُ قائِدُ جَيشِ الإمامِ عليٍّ (عليه السلام) يومَ صِفّينَ بِحُرقةٍ وَألَمٍ قائِلاً: " يا أصحابَ الجِباهِ السّودِ! كُنّا نَظُنُّ صَلاتَكُم زَهادَةً في الدُّنيا، وَشَوقاً إلى لِقاءِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فلا أرى فِرارَكُم إلاّ إلى الدُّنيا منَ المَوتِ، ألا قُبحاً يا أشباهَ النِّيبِ الجَلاّلَةِ(النّوقِ المُسِنَّةِ الهَرِمَةِ)." .

وكانَ الوفاءُ بِوَعدِ الإمامِ عليٍّ (عليه السلام) يَومَ النَّهروانِ، إذ دعا الإمامُ (عليه السلام) أصحابَهُ وَجُنودَهُ إلى قِتالِ أولئِكَ المارِقينَ فقالَ لَهُم: "والّذي فَلَقَ الحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسْمَةَ لايَقتُلونَ مِنكُم عَشْرَةً، ولا يَبقى مِنهُم عَشْرَةٌ!". وَتَدورُ الحَربُ الّتي شاءَ اللّهُ تعالى لِكُمَيلٍ فيها أن يكونَ من أنصارِ الإمامِ (عليه السلام)، ومِنَ المُقاتِلينَ تَحتَ لِوائِهِ، فلا تَنجلي المَعرَكَةُ حتّى يَرى أصحابُ الإمامِ بأنَّهُ لَم يُقتَلْ مِنهُم عَشْرَةٌ، وَلَم يَبقَ مِن الخَوارِجِ عَشْرَةٌ!



وَيَنطَلِقُ الإمامُ عليٌّ عليه السلام بَعدَ أن هَدَأَ الغُبارُ وَمَعَهُ صاحِبُهُ كُمَيلٌ بنُ زِيادٍ الّذي أبلى في المعرَكَةِ بلاءً حَسَناً، ويَنظُرانِ معاً إلى جُثَثِ القَتلى المُبَعثَرَةِ على الرِّمالِ قَبلَ أن تَجِفَّ الدِّماءُ.

ثُمَّ يُشيرُ الإمامُ عليٌّ عليه السلام إلى رأسِ أَحَدِ القَتلى بِسَيفِهِ، ويقولُ لِكُمَيلٍ: " يا كُمَيلُ! (أمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللّيلِ ساجِداً وقائِماً).!".

فَفَهِمَ كُمَيلٌ مَن يكونُ صاحِبُ تِلكَ الجُثَّةِ، إنَّهُ إذاً ذلكَ الرَّجُلُ الّذي أُعجِبَ بِصَوتِهِ وَتِلاوَتِهِ وَعِبادَتِهِ!

فَهوى كُمَيلٌ على قَدَمَيِّ الإمامِ عليه السلام يَقَبِّلُهُما مُسْتَغْفِراً اللّهَ تعالى عن تَسَرُّعِهِ في الحُكْمِ على البَشَرِ، وما أعجَبَ أحوالَهُم! وَكَم حَمَدَ اللّهَ، بَعدَ أن تَذَكَّرَ فَضْلَهُ عَلَيهِ ، بِأنْ هداهُ، وبيَّنَ لَهُ طَريقَ الحَقِّ الّذي لاشُبهَةَ فيهِ، وَجَعَلَهُ مُقَرَّباً من وَصيِّ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وَتِلميذاً لَهُ، يَتَعَلَّمُ منهُ، وَيُصغي إلى حَديثٍ لا يَقولُهُ عليه السلام لأحَدٍ سِواهُ.



بَلْ إنَّهُ بِفَضْلِ صُحْبَتِهِ للإمامِ عليٍّ (عليه السلام) صارَ من أَصحابِ إمامٍ مَعصومٍ سَيَكونُ وَصِيَّ أبيهِ من بَعدِهِ. إنَّهُ الإمامُ الحسَنُ الزَّكيُّ أبو مُحَمَّدٍ (عليه السلام)، وهُوَ حفيدُ نبيِّ الأمَّةِ، وابنُ بِنتِهِ، وابنُ وَصِيِّهِ، ولا شكَّ في أنَّ هذا القُربُ من بيتِ النُّبُوَّةِ، سَيُتيحُ لِكُمَيلٍ ما حُرِمَ منهُ الكثيرونَ، من عِلمٍ ومن يَقينٍ ومن جِهادٍ بينَ يديِّ الأئِمَّةِ، لذا صَقَلَ سَيفَهُ، وَأَعَدَّهُ في انتِظارِ أيِّ إشارَةٍ يُشيرُ بِها الإمامُ عليٌّ (عليه السلام)، وتَنفيذِ أيِّ أَمرٍ يَأْمُرُهُ بِهِ.

لَم يَكُنِ الجِهادُ بالسَّيفِ هُوَ العَمَلَ الوَحيدَ الّذي أعَدَّ أميرُ المُؤمنينَ كُمَيلاً لَهُ، فالإمامُ (عليه السلام) يَعلَمُ أنَّ لأصحابِهِ دَوراً لا يَقِلُّ أَهَمِّيَّةً عنْ دَورِهِم في الجِهادِ.

إنّهُ جِهادٌ من نَوعٍ آخَرَ، هُوَ تَعليمُ النّاسِ وَنقلُ العِلمِ النَّبويِّ عنِ الإمامِ (عليه السلام) إلَيهِم، لِذا كثيراً ما كانَ الإمامُ (عليه السلام) يَهمِسُ في أذنِ كُمَيلٍ بِعِلمٍ من عُلومِ النُّبُوَّةِ، أو حِكْمَةٍ من حِكَمِها. وَها هُوَ عَلَيهِ السَّلامُ، يأخُذُ بِيَدِ كُمَيلٍ ذاتِ يَومٍ، وَيَخرُجُ بِهِ إلى الفَلاةِ الواسِعَةِ



بينَما تَتَقَلَّبُ الفَرحَةُ في أعماقِ كُمَيلٍ الّذي ما أتيحَ لَهُ مَرَّةً أن يكونَ بِرفقَةِ الإمامِ عليه السلام وَحدَهُ، إلاّ واختَصَّهُ بِعِلم منالعُلوم المُقَدَّسَةِ، أو باحَ لَهُ بِسِرٍّ من الأسرارِ المُنجِيَةِ مِنَ النّارِ. لم يَكُنْ مُهِمّاً عِندَ كُمَيلٍ أن يَعرِفَ وُجهَةَ سَيرِهِ بِصُحبَةِ الإمامِ عليه السلام. المِهُمُّ أنَّهُ بِصُحبَتِهِ وَكفى.

فَجأَةً تَوَجَّهَتْ خُطاَ الإمامِ عليه السلام نَحوَ مَكانٍ يَعرِفُهُ كُمَيلٌ جَيِّداً. وَلِمَ لا. رُبَّما قالَها كُمَيلٌ في نَفسِهِ، وَهُوَ يَرى قُبورَ المَوتى تَتَراصَفُ أمامَ عينَيه!

هذا هُوَ المَكانُ الّذي أرادَ الإمامُ عليه السلام أن يَخرُجَ بِهِ إلَيهِ إذاً، فَرُبَّما كانَ مَنْ في الأجداثِ أفضَلَ عَمَلاً مِمَّن هُم فَوقَ التُّرابِ! لَم يَطُلْ تَأَمُّلُ كُمَيلٍ طَويلاً. إذ هَبَّتْ نَسمَةٌ عليلَةٌ مَلأَتْ صَدْرَ الإمامِ عليه السلام بالهَواءِ النَّقيِّ، فَتَنَفَّسَ الصُّعَداءَ، مُعَبِّراً عن راحَتِهِ في البَوحِ وَالكَلامِ،ثُمَّ قالَ: " يا كُمَيلُ! إنَّ هذِهِ القُلوبُ أوعِيَةٌ، فَخَيرُها أوعاها، فاحفَظْ عَنّي ما أقولُ لَكَ.

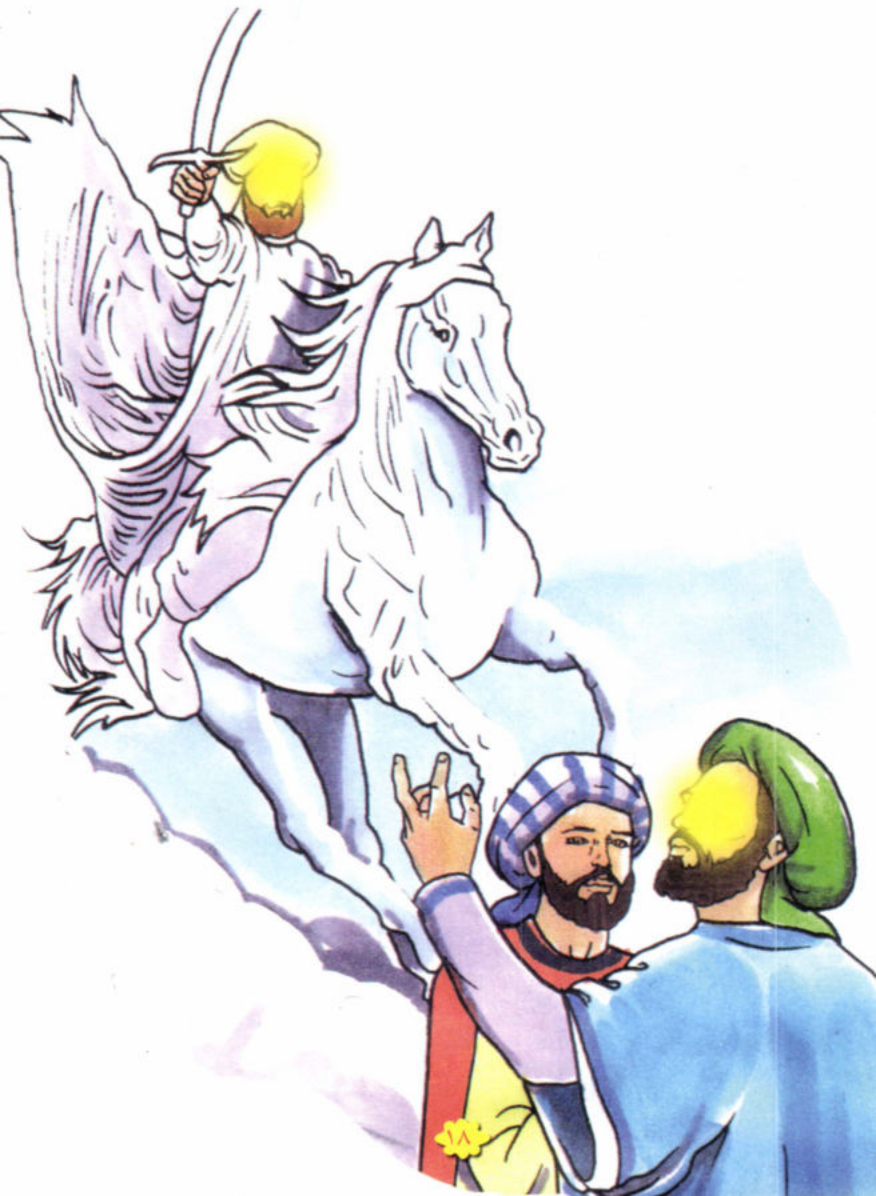


النّاسُ ثلاثَةٌ، فَعالِمٌ ربّانيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ على سَبيلِ النَّجاةِ، وَهَمَجٌ رُعاعٌ أتباعُ كُلِّ ناعِقٍ يَميلونَ مَعَ كُلِّ ريحٍ، لَم يَستضيئوا بِنورِ العِلمِ، وَلَم يَلجَؤوا إلى رُكنٍ وَثيقٍ.

يا كُمَيلُ! العِلمُ خَيرٌ منَ المالِ. وَالعِلمُ يَحرُسُكَ وأنتَ تَحرُسُ المالَ. المالُ تُنْقِصُهُ النَّفَقَةُ، وَالعِلمُ يَزكو على الإنفاقِ، وَصَنيعُ المالِ يَزولُ بِزَوالِهِ.

يا كُمَيلُ! مَعرِفَةُ العِلمِ دينٌ يُدانُ بِهِ. بِهِ يَكسِبُ الإنسانُ الطّاعَةَ في حَياتِهِ، وَجَميلَ الأُحدوثَةِ بَعدَ وَفاتِهِ. وَالعِلمُ حاكِمٌ والمالُ مَحكومٌ عَلَيهِ.

يا كُمَيْلُ ، هَلَكَ خُزّانُ الأموالِ وَهُم أَحياءٌ، وَالعُلَماءُ باقونَ ما بَقِيَ الدَّهرُ. أَعيانُهُم مَفقودَةٌ، وَأمثالُهُم في القُلوبِ مَوجودَةٌ. ها إنَّ ههُنا لَعِلْماً جَمّاً(وَأشارَ إلى صَدْرِهِ) لَوْ أَصَبتُ لَهُ حَمَلَةً! بَلى أَصَبتُ لَقِناً غَيرَ مَمونٍ عَلَيهِ، مُسْتَعمِلاً آلَةَ الدّينِ لِلدُّنيا، وَمُستَظْهِراً بِنِعَمِ اللّهِ على عِبادِهِ، وَبِحُجَجِهِ على أولِيائِهِ، أو مُنقاداً لِحَمَلَةِ الحَقِّ، لا بَصيرَةَ لَهُ في أحنائِهِ، يَنقَدِحُ الشَّكُّ في قَلبِهِ لأوَّلِ عارِضٍ من شُبهَةٍ.



ألا لا ذا ولا ذاكَ، أو مَنهومــاً باللّذّةِ سَلِسَ القِيادِ لِلشَّهوَةِ، أو مُغرَماً بالجَمعِ والادّخارِ ليسا مِنْ رُعـاةِ الدّينِ في شَيءٍ. أقرَبُ شيءٍ شَبَهاً بِهِما الأنعامُ السّائِمَةُ، كذلكَ يموتُ العِلمُ بِمَوتِ حامِليهِ.

اللّهُمَّ بلى! لا تَخلو الأرضُ مِنْ قائِم لِلّهِ بِحُجَّةٍ. إمّا ظاهِراً مَشهوراً، أو خائِفاً مَغموراً، لِئلاّ تَبطُلَ حُجَجُ اللّهِ وَبيِّنـاتُهُ. وَكَم ذا؟ وَأَينَ أولئكَ ؟

أولئكَ واللّهِ الأقلّـونَ عدَداً، والأعظَمـونَ عِندَ اللّهِ قَدراً. يَحفَظُ اللّهُ بِهِم حُجَجَهُ وَبيِّناتِهِ، حتّى يودِعوها نُظَراءَهُم، وَيَزرعوها في قُلوبِ أشباهِهِـم. هَجَـمَ بِهِـمُ العِلـمُ على حَقيقَةِ البَصيـرَةِ، وَباشَـروا روحَ اليَقيـنِ، واستَلانـوا مـا استَوعَرَهُ المُترَفونَ، وَأنِسوا بِما استَوحَشَ مِنهُ الجاهِلونَ، وَصَحِبوا الدُّنيا بِأبدانٍ أرواحُها مُعَلَّقَةٌ بالمَحَـلِّ الأعـلى. أولئكَ خُلَفاءُ اللّهِ في أرضِهِ، والدُّعـاةُ إلى دينِـهِ. آهٍ آهٍ شَوقاً إلى رُؤيَتِهِم.. إنصَرِفْ إذا شِئتَ!".



هكَذا اختـارَ الإمـامُ عليٌّ عليه السلام كُمَيلاً دونَ بَقِيَّـةِ صَحبِهِ كَيْ يُفضي إلَيهِ بِهذا العِلمِ، فالإمامُ عليه السلام عالِمٌ بِما في نَفسِ كُمَيلٍ من شَوقٍ إلى حِفظِ العِبَرِ وَالدُّروسِ، وَمالَدَيهِ من صَبرٍ على تَعليمِها للآخَرينَ منَ النّاسِ.

وَقَدْ خَبِرَهُ مَرَّةً في مَسجِدِ البَصْرَةِ، يَومَ جَلَسَ الإمـامُ عليه السلام وَمَعَهُ كُمَيلٌ وَجَماعَةٌ من أَصحابِهِ، وَكانَ الإمامُ عليه السلام حينَ يَتَكَلَّمُ يُنصِتُ كُلُّ الحاضِـرينَ إجـلالاً وَهَيبَـةً، واحتِرامـاً. إضافَةً إلى رَغْبَةِ الحـاضِرينَ بارتِشافِ العِلـمِ من مناهِلِـهِ وَينـابيعِـهِ.

وَكانَ النّـاسُ كَعادَتِهِم يَسأَلونَ الإمـامَ عليه السلام عَنِ القَضـايا الّتي تَشْغَـلُ بالَهُـم، وَيحتاجـونَ إلى مَعْرِفَتِهـا.

فقالَ أَحَدُ الحاضِرينَ سائلاً أميرَ المُؤمنينَ عليه السلام: " ما مَعنى قَولِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ(فيها يُفرَقُ كُلُّ أَمرٍ حَكيمٍ)."



فقالَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام:" هِيَ لَيلَةُ النِّصْفِ من شَعبـانَ، وَالّذي نَفسُ عليٍّ بِيَدِهِ، إنَّهُ ما مِنْ عَبدٍ، إلاّ وَجَميعُ ما يَجري عَلَيـهِ من خَيرٍ أو شَرٍّ، مَقسومٌ لَهُ في لَيلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعبـانَ، إلى آخِرِ السَّنَةِ في مِثلِ تِلكَ اللّيلَةِ المُقْبِلَةِ. وَما مِنْ عَبدٍ يُحييهـا، وَيَدعو بِدُعاءِ الخِضْرِ عليه السلام إلاّ اسْتُجيبَ لَهُ".

أكْمَلَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام حَديثَهُ إلى أصحابِهِ، بينَما راحَ كُمَيلٌ يَتَأَمَّلُ ما قالَهُ،وَيُبحِرُ في مَعانيهِ. وفي اللّيـلِ، وَبينَمـا الإمـامُ عليٌّ عليه السلام في بَيتِهِ، إذ بِطَـرقٍ على البابِ في وَقتٍ لَيسَ من عادَةِ النّاسِ أن يَطْرُقوا فيهِ بابَهُ.

فَتَحَ الإمامُ عليٌّ البابَ، وإذْ بِكُمَيلِ بنِ زِيادٍ! .قالَ عليه السلام:" ما جاءَ بِكَ ياكُمَيلُ؟".

قـالَ كُمَيلٌ:" يا أميرَ المُؤمِنينَ، دُعاءُ الخِضْرِ عليه السلام!".

فقالَ الإمامُ عليه السلام:" إجلِسْ يا كُمَيلُ. إذا حَفِظْتَ هذا الدُّعاءَ، فادعُ بِهِ كُلَّ لَيلَةِ جُمُعَـةٍ، أو في الشَّهـرِ مَرَّةً، أو في السَّنَةِ مَرَّةً، أو في عُمرِكَ مَـرَّةً، تُكـفَ، وتُنصَـرْ، وتُـرزَقْ، وَلَنْ تَعدِمَ المَغْفِرَةَ. ".



لَم يَكتَفِ الإمامُ عليٌّ عليه السلام بِأنْ أعطى كُمَيلاً ما سَأَلَهُ، بَل إنَّـهُ أَمَرَهُ بِأن يَكتُبَ الدُّعاءَ ليكونَ رفيقاً مُؤنِساً لِلمُؤمِنينَ في كُلِّ مكانٍ وَزمانٍ، كُلَّما أَظْلَمَـتْ عَلَيهِـمُ الحَياةُ لِيَسـألوا اللّهَ، أو تَيَسَّرَتْ لَهُم، لِيَشكُروهُ.

لَقَدْ رأى الإمامُ عليٌّ عليه السلام في كُمَيلٍ منَ الصِّفاتِ مـا جَعَلَـهُ يوليهِ ثِقَةً عظيمَةً. إنَّ لِشَجاعَتِهِ وَزُهدِهِ وإيمانِهِ ما يَدُلُّ على أنَّهُ نِعمَ العَبدُ الصّالِحُ.

وَلِذا اعتَمَـدَ الإمـامُ عليه السلام عليهِ في وِلايَةِ بَلْـدَةٍ هَيتَ، وَهِيَ من بَلداتِ العِراقِ، من نواحي بَغدادَ، وَسَلَّمَهُ أمـرَها، فَهَـلْ نَجَحَ كُمَيلٌ في إدارَةِ شُؤونِها مِثلَما نَجَحَ في أمـورِ الحَربِ والقِتالِ؟ كانَ مُعـاوِيَةُ يَتَرَبَّصُ بالمُسلِميـنَ في انتِظـارِ أيِّ حالَةِ ضَعفٍ يُمكِنُ لَـهُ أنْ يَنفَـذَ منهـا إلى تَنفيـذِ أهدافِـهِ وَمُخَطَّطاتِهِ



وَكانَ على عِلم بِأنَّ كُمَيلاً بنَ زِيادٍ صارَ والِياً على هَيتَ، وَكانَتِ الجَزيرَةُ على مَقرِبَةٍ مِنْ هَيتَ، حيثُ عَيَّنَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام شَبيباً بنَ عامِرٍ والِياً.

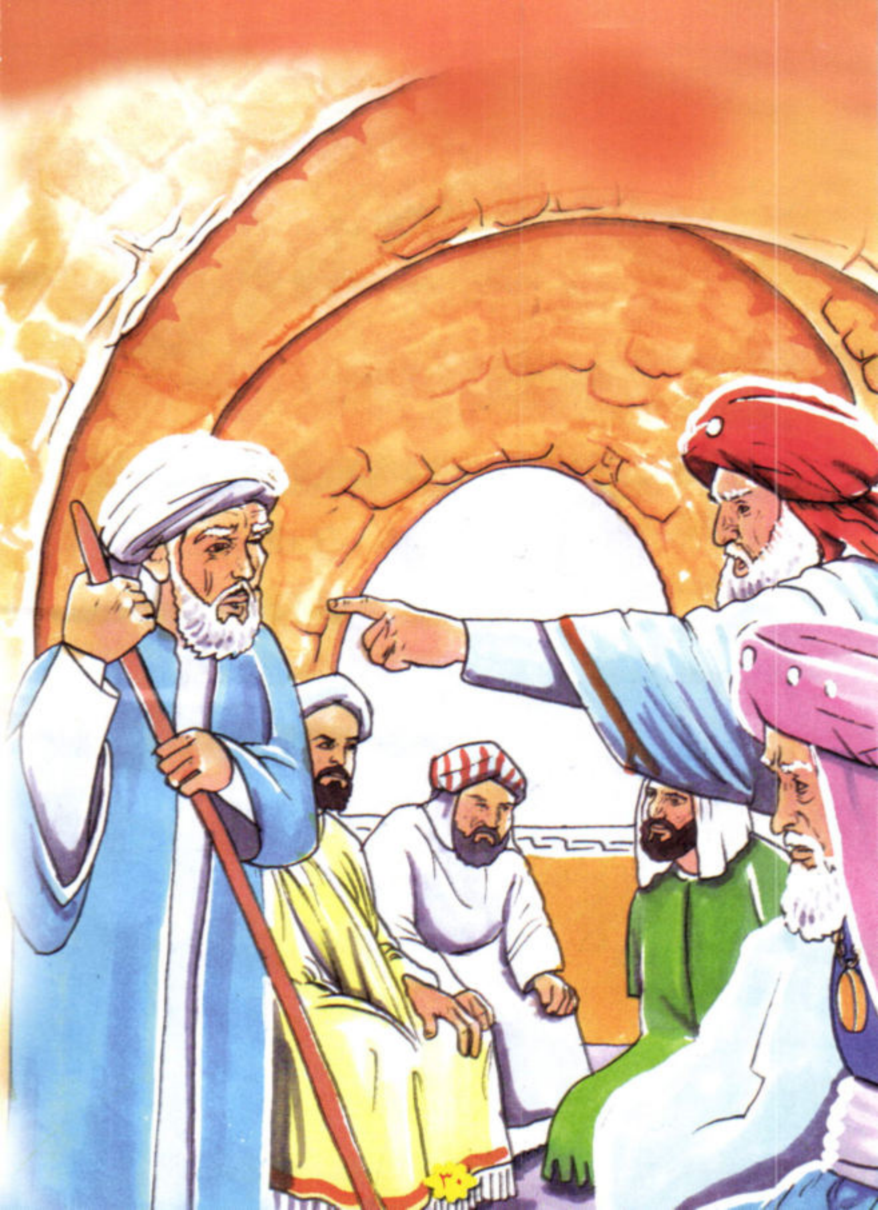
فَرَأى مُعاوِيَةُ أنْ يَنقَضَّ على هَيتَ مِنْ خِلالِ مُهاجَمَتِهِ الجَزيرَةَ أوَّلاً، فَسَيَّرَ إلَيها جَيشاً بِقِيادَةِ عَبدِ الرَّحمنِ بنِ قِباثٍ بنِ أشيَمَ. في تِلكَ الأثناءِ كانَ شَبيبٌ في مَدينَـــةِ نَصيبينَ بَينَ الموصِلِ والشّام. وَلمّـا عَلِمَ بِقُـدوم جَيشِ مُعاوِيَةَ،أرسَلَ إلى كُمَيلِ بنِ زِيادٍ في هَيتَ يُعلِمُهُ بِذلك. وعَلى الفَورِ أرسَلَ كُمَيلٌ إليهِ سِتَّمائةِ فارسٍ،انضَمّوا إلى جَيشِهِ، وقاتَلوا جَيشَ مُعاوِيَةَ حتّى هَزَموهُ،وَقَتَـلَ كُمَيـلٌ في تِلكَ المَعرَكَةِ الكَثيرَ من أَهلِ الشّـام، كمـا قُتِـلَ مِنْ أصحابِهِ رَجُلانِ.وَحينَ عَلِمَ الإمامُ عليٌّ عليه السلام بِذلكَ الفَتحِ سُرَّ وَجَزى كُمَيلاً خيراً، بَعدَ أن لامَهُ على نَجاحِ مُعاوِيَةَ فيما سَبَقَ في الإغارَةِ على وِلايَتِهِ ، رِغْـمَ أنَّهُ حـاوَلَ أن يُعوِّضَ ضَعفَهُ في ردِّ غارَةِ معاوِيَةَ بِأن أغارَ على أطرافِ مناطِقِ سَيطَرَةِ مُعاوِيَةَ.



وَمَرَّتِ الأيّامُ، وَكُمَيلٌ بنُ زِيادٍ يَعيشُ مُحِبّاً لآلِ بَيتِ مُحَمَّدٍ عَلَيهِمُ السَّلامُ، مُلتَزِماً بِنَهجِهِم، وَمُعَلِّماً لِقِيَمِ النُّبُوَّةِ وَتَعاليمِ الإسلامِ الصَّحيح.

في زَمَنٍ شاعَ فيهِ الضَّلالُ، وتاهَتِ السَّفينَةُ بِرُكّابِها. ولكنَّ الظُّروفَ تَغَيَّرَتْ، وَ لَم يَبقَ منَ المُسلِمينَ المُخلِصينَ إلاّ ثُلَّةٌ، بَينَما تولّى الحُكْمَ أعداءُ الدّينِ وَأعْداءُ النَّبيِّ ﷺ، أولئكَ الّذينَ أمعَنوا في آلِ بَيتِ نَبِيِّهِم قتلاً وَتَعذيباً.

وَيَتولّى الحَجّاجُ بِسَيفِهِ وَبَطشِهِ حُكْمَ المُسلِمينَ، فَيَبدأُ بِمُلاحَقَةِ مَنْ بَقِيَ منْ أصحابِ الإمامِ عليٍّ عليه السلام، وَيَطلَبُ كُمَيلاً بنَ زِيادٍ، فَما كانَ منْ كُمَيلٍ إلاّ أَنْ توارى خَشيَةَ مايُمكِنُ أَنْ يَنالَهُ من أذىً على يَدِ الحَجّاجِ وَأعوانِهِ. فبادَرَ الحَجّاجُ إلى قَطْعِ العَطاءِ عَنْ قَومِ كُمَيلٍ، كَيْ يَضْغَطَ عَلَيهِ وَ يُرغِمَهُ على تَسليمِ نَفسِهِ.



وَفَكَّرَ كُمَيلٌ في نَفسِهِ وَقالَ:" أنا شَيخٌ كَبيرٌ قَدْ نَفَذَ عُمـري، لا يَنبَغي أن أَحرِمَ قَومي عَطِيّاتِهِم.". ثُمَّ خَرَجَ بِقَرارٍ أنهـى حَياتَهُ شَهيداً.!

لَقَدْ ذَهَبَ على قَدَمَيهِ إلى الحَجّاج، وَما إن نَظَـرَ إلَيـهِ حتّى قالَ:" لَقَدْ كُنتُ أُحِبُّ اَن أجِـدَ عَلَيكَ سَبيلاً."

فقـالَ لَهُ كُمَيـلٌ بِصَـوتٍ هادِئٍ وَرَصين:" لا تَصـرِفْ عليَّ أنيابَكَ، وَلا تَهَدَّمْ عَلَيَّ، فَوَ اللّهِ مابَقِيَ مِنْ عُمري إلاّ واسِتلِ الغُبار، فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ، فَإنَّ المَوْعِدَ اللّهُ، وَبَعدَ القَتـلِ الحِسابُ. وَلَقَدْ خَبَّرَني أميـرُ المُؤمِنينَ عليٌّ بنُ أبي طـالبٍ أَنَّكَ قاتِلي.".

فَأَمَرَ الحَجّاجُ بِأنْ يَضرِبـوا عُنُقَـهُ، واستُشهِـدَ كُمَيلٌ بنُ زِيادٍ بِنَفسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، قدِ اهتَدَتْ إلى الصِّراطِ المُستَقيم بَعدَ أن منَّ اللّهُ سُبحانَهُ عَلَيهِ بِصُحبَةِ أميرِ المُؤمِنينَ عَلَيهِ السَّلامُ.

